# القرآن الكريم وتفسيره

القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام ـ وبالتالي للثقافة الاسلامية. كل تعاليم الإسلام يجب أن ترجع في أصولها إلى القرآن : العقائد والمفاهيم والقيم والموازين ، والعبادات والشعائر والأخلاق والآداب ، والقوانين والشرائع . كل هذه قد وضع القرآن أسسها ، وأرسى دعائمها ، وجاءت السنة فبينت وفصلت ، وأقامت عليها بنيانا شامخاً لا تنال منه الليالي والأيام .

وقد حوى القرآن من حقائق الغيب ، وحقائق النفس ، وحقائق الحياة ، وحقائق الإجتماع الإنساني ، وبين من سنن الله تعالى ، ومن آياته في الأنفس والآفاق ما لا يستغني بشر عن معرفته ، والاهتداء به .

وقد صاغ ذلك كله في أسلوب معجز هو « نور من الكلام أو كلام من النور » لا يوصف الا بأنه « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير[1] » .

وصفه منزله بأنه « نور » والنور من طبيعته أن يضيء ويهدي « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً [2] » .

كما وصفه بأنه روح ، والروح من طبيعته أن يحرك ويُحيي « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا »[3] .

ولهذا كان شأن المؤمنين المهتدين بالقرآن أن يوصفوا بالحياة وبالنورانية معاً . انتصروا على الموت وعلى الظلام جميعاً . يقول تعالى : « أَوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ [4] »

---

(١) سورة هود : ١
(٢) سورة النساء : ١٧٤
(٣) سورة الشورى : ٥٢
(٤) سورة الأنعام : ١٢٢

**الداعية مع القرآن :**

وينبغي للداعية أن يحفظ من القرآن الكريم قدر ما يستطيع ، بل يحسن بالداعية أن يحفظ القرآن كله ويستظهره ، متى تيسرت له أسباب ذلك ، ليكون أقدر على استحضاره والاستشهاد به في كل مناسبة ممكنة ، فالقرآن ذخيرة لا تنفذ ، ومعين لا ينضب لإمداد الدعاة .

ومن اللازم ـ للحافظ وغير الحافظ ـ دوام التلاوة لكتاب الله بخشوع وتأمل وتدبر ، تنفتح معه أقفال القلوب ، وتنشرح الصدور لما جاء به من الحق ، وتقتبس العقول منه أنوار المعرفة ، وتجتني ثمار الحقائق .

ودوام هذه التلاوة مع التفهم والتدبر ، يجعل الداعية متمكناً من استحضار الشواهد القرآنية ، التي يريد أن يؤيد بها فكرته ، ويمنحها نسبة إلهية .

بل ان مما يلزم الداعية الموفق أن يحسن تلاوة القرآن بإتقان وترتيل كما أمر الله ، وأن يدرس من أحكام التجويد ما يصحح به قراءته ، حتى يتلوه بخشوع وتأثر وحزن ، فان وجد بكاء بكى ، وإلا تباكى .

**خصائص القرآن :**

وينبغي لمن يريد أن يفهم القرآن ، أن يقرأه وهو يعي خصائصه ومميزاته ويدركها بعقله وقلبه .

**١ ـ كلام الله :**

أولى هذه الخصائص : أنه كلام الله خالصاً ، غير مشوب بأوهام البشر ، ولا بأهواء البشر ، ولا بتجريفات البشر ، وانحرافات البشر فهو كله من الله ، مائة في المائة ، من ألفه إلى يائه . ليس لجبريل منه إلا النقل ، ولا لمحمد منه إلا التلقي والحفظ ، ثم التبليغ والبيان « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين . »[1]

(١) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥

ومعنى هذا أنه يحمل في ثناياه علم الألوهية وحكمتها ورحمتها وقدرتها . الألوهية المتصفة بكل كمال ، المنزهة عن كل نقص . « قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً »[1] .

ولا غرو أن تتصف أخبار هذا الكتاب بالصدق الكامل ، وأحكامه بالعدل المطلق « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً . لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم »[2] .

وكل ما في القرآن من أخبار ومواعظ ، وأوامر ونواهٍ ، وتوجيهات وتشريعات يتجلى فيه الحق كله ، والخير كله ، والجمال كله ، والعدل كله ، والحكمة كلها والرحمة كلها ، والمصلحة كلها ، لأنها كلها صادرة « من لدن حكيم خبير »[3] « من لدن حكيم عليم »[4] « تنزيل من حكيم حميد »[5] « تنزيل من الرحمن الرحيم »[3] « تنزيل من رب العالمين »[7] .

ومن هنا يختم القرآن كثيراً من آياته التشريعية بمثل هذه الفواصل « والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[8] « والله بكل شيء عليم »[9] « ان الله كان عليماً حكيماً »[10] « والله عزيز حكيم »[11] « ان الله عليم حكيم »[12]

ومن ثم لا يجوز لمخلوق ـ أياً كان شأنه ـ أن يفرض نفسه على كلام الخالق : يفرض جهله مدعياً العلم ، أو يفرض هواه زاعماً التحرر ، أو يفرض نقصه متظاهراً بالكمال . فكلمات الله هي العليا ، وهي فوق الجهالات والأهواء والأوهام .

---

(١) سورة الفرقان : ٦
(٢) سورة الانعام : ١١٥
(٣) سورة هود : ١
(٤) سورة النحل : ٦
(٥) سورة فصلت : ٢
(٦) سورة فصلت : ٤٢
(٧) سورة الحاقة : ٤٣
(٨) سورة البقرة ٢١٦
(٩) سورة البقرة : ٢٨٢
(١٠) سورة النساء : ١١
(١١) سورة المائدة : ٣٨
(١٢) سورة التوبة : ٢٨

٢ ـ التيسير :

والخصيصة الثانية للقرآن هي التَّيسير ، فهو كتاب يسَّره منزله سبحانه . يسّر تلاوته ، ويسر فهمه ويسر العمل به لمن أراد . لا يكلف الإنسان شططاً ، ولا يرهقه من أمره عسراً . قال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » [١] « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » [٢] ويستطيع كل إنسان سليم الفطرة ـ يقرأ القرآن أو يسمعه ـ أن يفهم منه ، ويتأثر به ويستقي من منهله ، بقدر ما يتسع واديه « فسالت أودية بقدرها » [٣] .

ولهذا كان من أوصاف هذا الكتاب : الإبانة والوضوح .. فهو كتاب « مبين » بل هو « نور مبين » قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » [٤] « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » [٥] .

والنور واضح بين في نفسه ، مبين موضح لغيره ، فكل بصير لا بد أن يرى النور ، ولايستطيع أن يرى شيئاً بغير النور .

وكل هذا يوجب على الداعية أن يعرض القرآن سهلاً ميسراً كما أنزله الله ، ولا يضعه في إطار من الألغاز والمعميات والتكلفات التي تخرجه عن طبيعته الميسَّرة ، والميسِّرة كذلك .

كما ينبغي له ألا يكثر من القيل والقال في بيان معاني القرآن ، وألا يَغرَق ـ ويُغرق الناس معه ـ في أقاويل يضرب بعضها بعضاً ، أو يكرر بعضها بعضاً مع اختلاف الألفاظ ، دون أن يكون وراءها ثمرة علمية ، أو يخرج منها برأي ناضج محدد .

---

(١) سورة القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ، ٣٢

(٢) سورة الدخان : ٥٨

(٣) سورة الرعد : ١٧

(٤) سورة المائدة : ١٥

(٥) سورة النساء : ١٧٤

٣ ـ **الإعجاز** :

ومن خصائص القرآن : أنه كتاب معجز ، أمر الله رسوله أن يتحدى به المشركين من العرب أن يأتوا بحديث مثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة ، مثله ، فغلبوا وانقطعوا ، وسجل القرآن عليهم ذلك في جلاء وصراحة « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [1] » .

فالقرآن ـ بهذا ـ هو آية محمد العظمى ، ومعجزته الخالدة .

كانت آيات الأنبياء السابقين مادية حسية وقتية يؤمن بها من عاصرها وشاهدها دون من نأى بهم المكان ، أو تأخر بهم الزمان .

أما القرآن فكان آية عقلية أدبية باقية على مر الدهر . وفي هذا جاء حديث البخاري عنه ـ ﷺ ـ « ما من الأنبياء الا أوتي ما على مثله آمن البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » والإعجاز القرآني له أوجه أو جوانب عديدة يتجلى فيها . وأهم هذه الأوجه أو الجوانب التي تهم الداعية خاصة ما يلي : ـ

أ ـ **الاعجاز البياني** : وهو ما يتعلق ببلاغة القرآن ونظمه وأسلوبه وعباراته وألفاظه ، وهو الذي وجه إليه القدامى همهم وأوسعوا القول فيه ، وأسهم في ذلك علماء الكلام مثل الباقلاني ، وعلماء البلاغة واللغة مثل عبد القاهر الجرجاني ، وعلماء التفسير مثل الطبري ..... وغيرهم .

وقام المحْدَثون فيه بجهد مشكور مثل الرافعي في « إعجاز القرآن » وسيد قطب في « التصوير الفني في القرآن » « ومشاهد القيامة في القرآن » ود. بدوي في « بلاغة القرآن » ود. دراز في « النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن »

---

(١) سورة الاسراء : ٨٨

ومحمد المبارك في « صور أدبية من القرآن » وبنت الشاطىء في « التفسير البياني للقرآن » وغيرهم .

**ب ـ الاعجاز الموضوعي** : ونعني به : أن القرآن قد جمع من صنوف الهداية والحكمة والموعظة الحسنة ، ومن وجوه الاصلاح التوجيهي والتربوي والتشريعي ، ما يسعد البشر أفراداً وأسراً وجماعات ودولا ، في دينهم ودنياهم ، لو أنهم اهتدوا به واتبعوه . وما يعجز حكماء الأمم ومفكرو الشرق والغرب أن يأتوا بمثله في شموله وتوازنه وعمقه . هذا مع أن الذي أتى به رجل أمي نشأ في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

ولم يهتم الأولون بالتأليف في هذا اللون من ألوان الإعجاز ، وإن أشاروا اليه ، ونبهوا عليه ، ضمن بحوثهم عن الإعجاز .

وفي عصرنا بدأت العقول تتجه إلى تجديد التحدي بالقرآن من ناحية موضوعه ومحتواه ، وألف في ذلك العلامة السيد / رشيد رضا كتابه « الوحي المحمدي » وكتب العلامة الشيخ محمد أبو زهرة عدة مقالات عنوانها « شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله » .

وألف كثيرون في موضوعات قرآنية شتى ، مثل « القرآن والقتال » و « القرآن والمرأة » للشيخ شلتوت ، و « الإنسان في القرآن الكريم » و « المرأة في القرآن الكريم » للعقاد . التربية في القرآن لمحمد شديد .. دستور الأخلاق في القرآن للدكتور دراز ، الدستور القرآني لمحمد عزت دروزة .. وغيرها وغيرها .

**جـ ـ الإعجاز العلمي** : ونعني به ما يتعلق بإشارة القرآن في كثير من آياته إلى حقائق علمية كشف عنها العلم الحديث ووافقت أحدث ما انتهى إليه الكشف العلمي في هذا العصر . مع أنها كانت مجهولة في عصر النبوة ، وما بعده لقرون عديدة .

ومثل هذا لا يتصور أن يصدر من بشر ، لا يدري ماذا يكسب غداً ،

فضلاً عما يكسب غيره ، وما تكتشفه البشرية بعد قرون وقرون . إنما يتصور أن يصدر هذا من خالق الكون ومدبره ، فهو القادر على أن يودع كتابه من أسرار الوجود ما لا يعلمه غيره ، وأن يصوغ ذلك في أسلوب يتسع لإدراك السابقين ، وفهم اللاحقين . وقد عنى كثيرون من المعاصرين بهذا اللون من الإعجاز ، وبخاصة المتخصصون في العلوم الحديثة ، مثل الأساتذة : د ـ محمد أحمد الغمراوي . د ـ محمد جمال الدين الفندي ، عبد الرزاق نوفل ، وقبلهم الشيخ طنطاوي جوهري ، وغلا بعضهم في ذلك إلى حد التكليف والمجافاة للفظ القرآن وسياقه ، وعارضهم آخرون على طول الخط ، وتوسط فريق ثالث . وخير الأمور الوسط .

وسنعود إلى ذلك فيما بعد .

**٤ ـ الخلود :**

ومن خصائص القرآن : أنه كتاب الخلود ـ ليس كتاب جيل ، ولا كتاب عصر ، ولا كتاب أجيال أو أعصار محدودة ، بل هو الكتاب الخاتم للرسالة الخاتمة ، ولهذا تكفل الله بحفظه فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لـه لحافظون[1] » « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[2] » .

ومن دلائل ذلك أن أربعة عشر قرناً من الزمن مرت على نزول هذا القرآن ولم يزل كما أنزله الله ، وكما بلغه محمد ﷺ ، وكما تلقاه أصحابه ، ومن بعدهم جيلاً إثر جيل ، محفوظاً في الصدور ، متلواً بالألسنة ، مكتوباً في المصاحف ، يستظهره عشرات الألوف من أبناء المسلمين ، حتى الصبيان منهم ، بل حتى الأعاجم الذين لا يعرفون لغته .

وعلى الداعية أن يقرأ القرآن بهذه الروح ، وهذه الفكرة : إنه كتاب

---

(١) سورة الحجر : ٩

(٢) سورة فصّلت : ٤١ ـ ٤٢

الزمن كله ، فلا ينبغي أن يحمل على ثقافة عصر خاص ، أو أفكار جيل معين ، فإن ، الثقافات تتطور ، والأفكار تتغير ، والعصور والأجيال تذهب ، ويبقى كتاب الله كما أنزله الله .

**٥ ـ الشمول :**

ومن خصائص القرآن كذلك : **الشمول** فكما أنه كتاب الزمن كله هو كتاب الدين كله : جمع أصول الهداية الآلهية ، والتوجيه الرباني ، في العقائد والشعائر والآداب والأخلاق ، كما جمع أصول التشريع الإلهي في العبادات والمعاملات وشؤون الأسرة وعلاقات المجتمع الصغير والكبير ، المحلي والدولي حتى ان أطول آية فيه إنما أنزلت لتنظم شأناً من شؤون الحياة الاجتماعية ، وهو كتابة الدين .

وإلى جانب هذا هو كتاب الانسانية كلها ، وكتاب الحياة كلها . ولهذا « جعله الله للناس » و « للعالمين » كما قال تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن **هدى للناس**[1] » وقال سبحانه : « إن هو إلا ذكر **للعالمين**[2] » .

فليس هو كتاباً لجنس دون جنس ، ولا لوطن دون وطن ، ولا لطائفة من الناس دون أخرى .

ليس للعقليين دون العاطفيين ، ولا العكس ، وليس للروحيين دون الماديين ولا العكس . وليس للحكام دون المحكومين ، ولا العكس ، وليس للأغنياء دون الفقراء ولا للفقراء دون الأغنياء . إنه كتاب الجميع ، ودستور الجميع .

فالقرآن دستور شامل ، وصفه منزله ـ وهو رب كل شيء ـ بأنه تبيان لكل شيء فقد خاطب الرسول المنزل عليه بقوله : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين [3] » .

(١) سورة البقرة : ١٨٥

(٢) سورة التكوير : ٢٧

(٣) سورة النحل : ٨٩

وقد قال الخليفة الأول : لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله .

فلم ينزله الله بياناً للعقيدة أو للعبادة فقط ، فيكون كتاباً في اللاهوت . ولا بياناً للفضائل والآداب فقط ، فيضاف إلى كتب الأخلاق ، ولا بياناً للشرائع والأنظمة فحسب ، فيكون كتاباً في القانون ، ولكنه كتاب يضم ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، في نسق فريد ونظم بديع .

اقرأ هاتين الآيتين في سورة البقرة :

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم . وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .[1] .

ترى كيف نصنف هاتين الآيتين ؟

إنهما تتضمنان تشريعاً للأسرة ، وتتضمنان كذلك تربية وتوجيهات أخلاقية وإرشادات دينية ، وتذكيراً بالله واليوم الآخر ، وتقرران علم الله بكل شيء على حين لا يعلم البشر ..

فهل تُحْسَب هاتان الآيتان في التشريع أم في التربية أم في العقيدة أم في الآداب ؟ – الحقيقة أنهما في ذلك كله في وقت واحد .

ومن شمول القرآن : أنه لا يخاطب العقل وحده ولا القلب وحده ، بل يخاطب الكيان الإنساني كله ، فيقنع العقل ، ويحرك القلب في وقت واحد كذلك . فإذا قرأ الإنسان أو سمع مثل هذه الآيات : « يا أيها الإنسان ، ما غرك

---

(١) سورة البقرة : ٢٣١ – ٢٣٢

بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركَّبك[1] .

يجدها تخاطب الإنسان كله : عقله ووجدانه وروحه ، فلا يكتفي بخطاب القلب والضمير وحده ، كما هو المعهود في كتب الدين واللاهوت قبل القرآن ، ولا يخاطب الفكر والعقل وحده كما هو شأن كتب الفلسفة قديماً وحديثاً . انما هو يخاطب الذات الإنسانية بكل مقوماتها وخصائصها .

يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد :

« يخاطب الإسلام العقل ، ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان . وفي حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة ، وان التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الإيمان : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا »[2] كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »[3] .

« وما كان الشمول في العقيدة ليذهب مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان ، روحاً وجسداً ، وعقلاً وضميراً ، بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات »[4] .

وهو لا يخاطب صنفاً واحداً من البشر له اتجاه عقلي أو نفسي معين ، مغفلاً من عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعددة .

كلا ، إنه يخاطب كل الأصناف ، ويشبع كل الاتجاهات السوية .

أ ـ إن طالب الحقيقة العقلية يجد في القرآن ما يرضى منطقه ، ويأخذ بلبه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر ، ويهيب به أن يرفض الظن والخرص واتباع الهوى والتقليد ، وأن يعتمد على البرهان وحده .

---

(١) سورة الانفطار : ٦ ـ ٨

(٢) سورة سبأ : ٤٦

(٣) سورة البقرة : ٢١٩

(٤) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٤ ط أولى .

ويكفي أن مشتقات العقل ، مثل : « يعقلون » و « تعقلون » ذكرت في القرآن ٥٨ ثمانية وخمسين مرة ، وذكرت مشتقات الفكر ١٧ سبع عشرة مرة ، وذكرت كلمة « الألباب » أي العقول ١٦ ست عشرة مرة ..

وهذا غير الآيات الكثيرة التي اشتملت على كلمات ومشتقات أخر مثل : النظر والاعتبار والتدبر والحجة والبرهان والنُهَى ونحو ذلك ، مما يبحث عنه طلاب الحقائق العقلية ، فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن .

ب ـ والباحث عن الحقيقة الروحية ، يجد في القرآن ما يرضي ذوقه ، ويغذي وجدانه ، ويشبع نهمه وتطلعاته في آفاق الروح ، في مثل قصة موسى والعبد الصالح الذي قال الله فيه : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً[١] .

جـ ـ والحريص على القيم الأخلاقية يجد في القرآن ضالته وطلبته . وإذا كان موضوع الأخلاق هو « الخير » فالقرآن قد دل على « الخير » كما هدى إلى « الحق » وقد جعل فعل الخير إحدى شعب ثلاث لمهمة المسلم « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »[٢] ولكنه لم يكتف من المسلم بفعل الخير ، بل طلب أن يدعو إليه ويدل عليه « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير »[٣] .

والأخلاق في القرآن تحتل مساحة عريضة لا يتسع المقام للحديث عنها ، ونوصي بالرجوع إلى « دستور الأخلاق في القرآن » للعلامة الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله .

د ـ وعاشق القيم الجمالية يجد في القرآن ما ينمي حاسته الجمالية ويغذي شعوره الفني ، وذلك بما لفت إليه القرآن الأنظار من الاستمتاع بجمال الطبيعة « وزيناها للناظرين »[٤] « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »[٥] وجمال النبات

(١) سورة الكهف : ٦٥
(٢) سورة الحج : ٧٧
(٣) سورة آل عمران : ١٠٤
(٤) سورة الحجر : ١٦
(٥) سورة الملك : ٥

« وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »[1] « فأنبتنا لكم به حدائق ذات بهجة »[2] ، وجمال الحيوانات « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون »[3] . وجمال الإنسان « وصوَّركم فأحسن صوركم »[4] وجمال المخلوقات كلها « صنع الله الذي أتقن كل شيء »[5] .

ووراء ذلك كله ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال معجز في شكله ومضمونه .

**تنبيهات للداعية في المجال القرآني :**

وأود أن أنبه الداعية الذي يريد أن يعيش مع القرآن ، ليأخذ منه زاداً لقلبه ، ويقبس منه نوراً لعقله . ويستمد منه رياً لروحه ، ثم يمد الآخرين بعد ذلك من فيض هذا الري ، وذاك النور ، وذلك الزاد ـ إلى عدة أمور :

**جمع الآيات في الموضوع الواحد وتصنيفها :**

فعلى الداعية إذا أراد أن يتحدث في موضوع ما ـ محاضراً أو مدرساً أو خطيباً أو كاتباً ـ أن يجمع الآيات المتعلقة بموضوعه ، ويعمل على تصنيفها بما يلائم الغرض ، ويوضح نظرة القرآن إلى الموضوع .

وينبغي للداعية المتبصر هنا أن ينظر نظرتين :

**إحداهما :** تتعلق بالألفاظ القرآنية المتعلقة بموضوعه ، وهذه يفيد منها ـ إلى حد كبير ـ مراجعة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ولا سيما لمن لم يكن مستظهراً القرآن .

**والثانية :** تتعلق بالمعاني المتصلة بموضوعه ، وهذه تحتاج إلى بصيرة وفطنة وحسن إدراك لما له صلة بالموضوع ، وإن لم يرد بنفس اللفظ والعبارة .

---

(١) سورة الحج : ٥
(٢) سورة النمل : ٦٠
(٣) سورة النحل : ٦
(٤) سورة التغابن : ٣
(٥) سورة النمل : ٨٨

والمهم في هذا وذاك هو حسن التصنيف والتقسيم الذي يوضح المعالم ، ويبرز المقومات والخصائص ، ويبين الأهداف والآثار .

لنأخذ مثلاً لذلك ... فبالمثال يتضح المقال .

إذا أردنا الحديث عن القرآن والعلم ، فإننا نجد أنفسنا أمام حشد هائل من الآيات يبلغ المئات . فلهذا نكتفي بأخذ بعضها وتصنيفها أو وضع عناوين لها كما يلي : —

أولو **العلم قرناء** الملائكة :

« شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » [١] فبدأ سبحانه بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأولى العلم ، مستشهداً بهم على تفرده بالألوهية .

**العلم يرفع أهله عن غيرهم :**

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » [٢] « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[٣] .

**العلم أساس خشية الله :**

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »[٤] .

**الواجب على الجاهل أن يتبع العالم** ولو كان أصغر منه :

« يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً »[٥] .

**قد يدرك الأدنى من العلم ما لا يدرك الأعلى :**

في قصة سليمان حين عزم على معاقبة الهدهد الغائب فجاء يخبره « قال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين »[٦] .

وفي قصة ابني آدم حيث تعلم الإنسان من الغراب .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨
(٢) سورة الزمر : ٩
(٣) سورة المجادلة : ١١
(٤) سورة فاطر : ٢٨
(٥) سورة مريم : ٤٣
(٦) سورة النمل : ٢٢

« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين »[1] .

**التعليم يرفع قدر المتعلم ولو كان كلباً :**

« يسألونك ماذا أحل لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم »[2] وبهذا امتاز الكلب المعلم على كل كلب آخر .

**الأمر بالرجوع إلى أهل العلم :**

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[3] « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم »[4] .

فسرت « أولو الأمر » في هذه الآية بالعلماء كما فسرت بالأمراء .

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »[5] ويشير القرآن إلى أن الخبير بالشيء هو القادر على الإنباء بحقيقته دون شطط أو قصور ـ وذلك في قوله : « ولا ينبئك مثل خبير »[6] ومن هنا يجب أن يسأل الخبير دون غيره « فاسأل به خبيراً »[7]

**العلم بحر لا ساحل له :**

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »[8]

**الازدياد في العلم مطلوب :**

« وقل رب زدني علماً »[9] « وفوق كل ذي علم عليم »[10]

---

(١) سورة المائدة : ٣١
(٢) سورة المائدة : ٤
(٣) سورة النحل : ٤٣
(٤) سورة النساء : ٥٩
(٥) سورة النساء : ٨٣
(٦) سورة فاطر : ١٤
(٧) سورة الفرقان : ٥٩
(٨) سورة الاسراء : ٨٥
(٩) سورة طه : ١١٤
(١٠) سورة يوسف : ٨٣

**الأنبياء يطلبون العلم عند من هم دونهم :**

في قصة موسى وفتاه قال تعالى : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً » [1] وموسى أفضل خلق الله في زمنه بلا نزاع .

**الرحلة في طلب العلم :**

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما »[2] . « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . »

إلى عشرات أخرى من الآيات تتعلق بموضوع العلم يجدها من يعيش مع القرآن .

ويستطيع الداعية المتمرس المتدبر لكتاب الله أن يخصص لنفسه سجلاً ، أو كشكولاً يدون فيه الموضوعات القرآنية ، وما يتعلق بها من آيات ،حسبما تهديه إليه بصيرته ووعيه وسيجد نفسه أمام عشرات ، بل مئات من الموضوعات الحية الدسمة .

وعليه بعد جمعها أن يحرص على تصنيفها بقدر ما يفتح الله عليه ، وسيجد عنده بعد زمن ذخيرة من القرآن لا تنفد ، وكنزاً من أسرار الحق لا يفنى .

**العناية بالقصص القرآني :**

ومما ينبغي للداعية الالتفات إليه ، والعناية به : القصص القرآني ، وما اشتمل عليه من عبر وعظات وأسرار وحكم بالغة .

وطريقة القرآن في سرد قصص الماضين لا تعتمد على ذكر التفصيلات ، كذكر أسماء الأشخاص والبلدان والتواريخ ونحوها ، إنما يهتم برؤوس

---

(١) سورة الكهف ٦٥

(٢) سورة الكهف : ٦٠

العبر ، ورسم ملامح الشخصيات التاريخية ، واتجاهات الأحداث ونتائجها : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب[1] . »

وعند سرد القصة نجد القرآن الكريم يضمنها كثيراً من الحقائق والأسرار العلمية والتوجيهية والتشريعية ، لتنفذ إلى النفس والعقل عن طريق غير مباشر.

فإذا أردنا أن نعرف مثلاً مكانة العلم في القرآن ، فإننا نستطيع أن نجد ذلك في آيات كثيرة مباشرة كما أسلفنا ، وأن نجده كذلك بصورة واضحة في آيات القصص القرآني ، وإن كانت غير مباشرة. نجد ذلك في أربعة مواضع من القرآن :

**الأولى** : في قصة آدم حين قال الله للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » واستغرابهم لذلك في أول الأمر ، ثم تسليمهم لآدم بعد أن أثبت الاختبار الإلهي تفوقه العلمي قال : « يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[2] . »

وهكذا أشار القرآن إلى أن العلم هو المرشح الأول للإنسان ليقوم بوظيفة الخلافة في الأرض .

**الثانية** : في قصة يوسف عليه السلام ، وما فيها عن استخدام « التخطيط » في السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة ، كما هو واضح في الخطة الخمس عشرية التي وضعها يوسف عليه السلام ، وطبقها بنجاح ، عاد خيره على أهل مصر والمناطق المجاورة لها ، في حين يظن بعض الناس أن التخطيط ينافي الدين والتوكل على الله .

**الثالثة** : في قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ ، حيث استطاع أحد رجال سليمان أن يأتيه بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه بواسطة علم عنده « قال الذي

---

(١) سورة يوسف : ١١١

(٢) سورة البقرة : ٣٣

عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك[1] » وكان سليمان في الشام وعرش بلقيس في اليمن .

**الرابعة** : في قصة ذي القرنين وبنائه السد العظيم من الحديد ، مخلوطاً بالنحاس المذاب ، وهو ما أثبت العلم الحديث أنه يعطي الحديد قوة ومتانة أكبر . « آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال : آتوني أفرغ عليه قطراً ، فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقباً »[2] .

ومثل ذلك اذا أحببنا أن نتعرف على مكانة الإيمان في نظر القرآن ، فلا ريب أننا سنجد أمامنا عشرات من الآيات الكريمة المباشرة ، تحدثنا عن الإيمان وأثره في حياة الإنسان ، ولكننا نستطيع أن ندرك أثر الإيمان بصورة أقوى وأبلغ إذا نحن تأملنا عدداً من قصص القرآن .

نجد في القرآن قصة الشباب حين يؤمن ، وماذا يصنع به الايمان ، وذلك في قصة فتية أهل الكهف الذين واجهوا بإيمانهم جمود المنكرين ، وطغيان المتجبرين : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها ، لقد قلنا إذن شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً »[3] .

ونجد في القرآن قصة المرأة حين تؤمن ، وإن كانت زوجه لفاجر كفار ، أو مبتكر جبار . وذلك في قصة امرأة فرعون ، التي لم تبال بملك فرعون ، ولم يغرها منه وعداً أو يثنها وعيد « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني

---

(١) سورة النمل : ٤٠ (٢) سورة الكهف : ٩٧

(٣) سورة الكهف : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

من القوم الظالمين[1] . »

ونجد في القرآن قصة عوام الناس حين يؤمنون ، وكيف يغيّرهم الإيمان وينشئهم خلقاً جديداً ، ويفجر فيهم طاقات نفسية عجيبة كانت دفينة مخبوءة حتى أبرزها الإيمان ، وذلك في قصة سحرة فرعون ، الذين تبين لهم الحق على يد موسى فآمنوا به ، متحدين جبروت فرعون وتهديده « وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين[2] .

**العناية بالنماذج القرآنية :**

وعلى الداعية أن يفي بالنماذج القرآنية التي تصور لنا الشخصية الإنسانية في مختلف المجالات والأحوال .

ومن هذه النماذج القرآنية أذكر عدة أمثلة : —

أ ـ نموذج الغنى الشاكر في شخصية سليمان الذي قال عندما سمع كلام النملة وفهم عنها « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه » كما قال عندما أحضر له عرش بلقيس « هذا من فضل ربي ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم . » القصة مفصلة في سورة النمل : الآيات : ١٦ ـ ٤٤

ب ـ نموذج الحاكم أو الملك العادل الذي لم يلهه سعة ملكة عن عبادة ربه ، ورعاية شعبه ، في شخصية ذي القرنين ، الذي بلغ بفتوحه مطلع الشمس

(١) سورة التحريم : ١١

(٢) سورة الأعراف : ١٢٠ ـ ١٢٦ .

ومغربها ، ولكنه ظل متمسكاً بالعدل : يكافيء المحسن ويعاقب المسيء ويقاوم المفسدين في الأرض ، ويقيم التحصينات ـ والسدود الضخمة مستعيناً بالله أولاً ، ثم بجهود الشعوب آخراً . الآيات من سورة الكهف : ٨٣ ـ ٩٨

جـ ـ نموذج المبتلي الصابر على البلاء ، والراضي بالقضاء ، في شخصية أيوب : « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » سورة ص : ٤١ ـ ٤٤

د ـ نموذج الشاب المتعفف عن الحرام ، برغم فتوته وجماله ونضرة شبابه وقوة دواعي الإغراء من حوله ، وإحاطة أسبابها به ـ في شخصية يوسف الصديق « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك قال : معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون.. الآيات من سورة يوسف : ٢٣ ـ ٣٣

هـ ـ نموذج الشاب الممتثل لأمر الله وإن كان فيه تقديم عنقه قرباناً إلى الله في شخصية الذبيح إسماعيل بن إبراهيم حيث قال له أبوه ، لما بلغ معه السعي : «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » ... الآيات من سورة الصافات : ١٠٠ ـ ١٠٩

و ـ نموذج المؤمن الذي يكتم إيمانه لمصلحة ، فإذا جاء وقت الحاجة برز بإيمانه يدافع عن الحق ، ويقاوم الباطل ، ويجادل بالحكمة ويؤثر بالموعظة ، ويدعو على بصيرة ـ في شخصية مؤمن آل فرعون . « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ... الآيات من سورة غافر : ٢٨ ـ ٣٤

ز ـ نموذج الداعية صاحب الرسالة ، يحكم عليه بالسجن ظلماً ، فلا ينسيه ظلم السجن وظلمته حق دعوته عليه ، فينتهز كل فرصة لدعوة السجناء إلى توحيد الله واطراح الوثنية المخرفة في شخصية يوسف بن يعقوب «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ الآيات من سورة يوسف : ٣٧ ـ ٤٠

ح ـ نموذج الإبن المؤمن وأبوه كافر ، وكيف يتلطف معه في إسماع الدعوة وتبليغ الرسالة ـ وذلك في شخصية إبراهيم وأبيه « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ... سورة مريم . الآيات : ٤١ ـ ٤٨

ط ـ نموذج الأب المؤمن وابنه كافر ، وكيف حاول الأب إنقاذه فلم يفلح ، وكيف حاول أن يشفع له عند ربه فعوتب في ذلك أشد العتاب ، وذلك في شخصية نوح وابنه الكافر ... سورة هود : الآيات : ٤٢ ـ ٤٧

ى ـ نموذج المرأة المؤمنة وزوجها كافر متعنت بل متأله . وذلك في شخصية آسية امرأة فرعون وزوجها الطاغية الجبار الذي حشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ، فلم يطمعها ملكه ، ولم يخفها جبروته ، ولم تعبأ بوعده ووعيده ، واتجهت إلى ربها قائلة « رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين » سورة التحريم . الآية : ١١

ك ـ نموذج المرأة الكافرة وزوجها مؤمن ، مثل أمرأة نوح وامرأة لوط : « كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين . » سورة التحريم . آية : ١٠

ل ـ نموذج الإنسان الخير المسالم ، الذي يقابل العدوان بالتقوى ، والسيئة بالحسنة ، والشر بالخير ، في شخصية ابن آدم الذي تسميه الإسرائيليات « هابيل » والذي هدده أخوه بالقتل ، فأجابه : « لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين » إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين سورة المائدة: الأيات : ٢٧ ـ ٢٩

م ـ نموذج الإنسان الشرير ، الذي يعتدي على أخيه ويلغ في دمه دون جرم جناه لا يردعه دين ولاخلق ولا رحم ، في شخصية ابن آدم المتسمى « قابيل » والذي لم يردعه عن قتل أخيه ـ ابن أمه وأبيه ـ موقفه الإنساني المثالي منه ـ « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . سورة المائدة . آية : ٣٠ ـ ٣١

ن ـ نموذج الشعب الجبان في وقت الكريهة ، الفرار في ساعة الشدة ، المتمرد على أنبيائه ـ في شخصية الشعب الإسرائيلي حين قال له رسوله ومحرره ومن أنقذه الله على يديه ـ موسى عليه السلام : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » سورة المائدة . الآيات : ٢٠ ـ ٢٦

ص ـ نموذج الأمة التي لا تحترم نعمة الله ، ولا تقوم بحق شكرها ، فيسلبها الله منها ، وذلك في شخصية قوم سبأ « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أُكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور ؟ » سورة سبأ . الآيات : ١٥ ـ ١٧

**حسن الاستدلال بآيات القرآن :**

ومما ينبغي للداعية أن يتحراه ويحرص عليه ويُحكمه : حسن الاستدلال بالقرآن وآياته على ما يريد تقريره ، أو تثبيته من أحكام وتعاليم وأفكار . فإنه إذا أحسن الاستدلال بالنص القرآني ، ووضعه في موضعه ، أزاح كل شبهة ، وقطع كل تعلة ، وأخرس كل معارض ، فلا دليل بعد القرآن ، ولا حديث بعد كلام الله . « ومن أصدق من الله حديثاً ؟[1] ! « ومن أصدق من الله قيلاً [2] ؟ » . « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم

(١) سورة النساء : ٨٧ (٢) سورة النساء : ١٢٢

يوقنون[1] » .

ولهذا لا يملك المؤمن أمام الدليل القرآني الصريح الا أن يقول : آمنا وصدقنا . أو : سمعنا وأطعنا . كما قال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً[2] » .

قد أدخل رجل على المأمون ، كان يمشي في الناس فيأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، دون أن يكون مأموراً من قبل الخليفة . فقال له المأمون : لم تأمر وتنهي وقد جعل الله ذلك إلينا . ونحن الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم : الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. فقال الرجل : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن غير أنا أولياؤك وأعوانك فيه ـ ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ قال الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وقال رسول الله ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . فأعجب المأمون بكلامه ، وسر به وقال : « مثلك يجوز أن يأمر بالمعروف ، فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا »

وهكذا حين أحسن الرجل الاستشهاد بالقرآن والسنة ، انقطعت حجة الخليفة ، ولم يجد بداً من إقرار الرجل على ما هو عليه .

وفي مقابل ذلك ، دخل واعظ على المأمون فوعظه ، وعنف له في القول . فقال المأمون : يا رجل ، ارفق ، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمره بالرفق : بعث موسى وهرون إلى فرعون ، فأوصاهما بقوله :

---

(١) سورة المائدة : ٥٠

(٢) سورة الأحزاب : ٣٦

« فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى . »

وهنا كان موقف المأمون هو الأقوى ، لأن الدليل القرآني معه .

ومما يجب على الداعية أن يراعيه في هذا المقام أن يستدل بالمتفق عليه ، لا بالمحتمل والمختلف فيه . فإن الدليل الذي يتطرق إليه الاحتمال ، يسقط الاستدلال به .

فعند الحديث عن شمول القرآن ـ مثلاً ـ يستدل بعض الناس بقوله تعالى في سورة الأنعام : « ما فرطنا في الكتاب من شيء[1] » .

مع أن الكتاب في الآية يحتمل أن يكون هو القرآن ، فيكون الاستدلال صحيحاً ويحتمل أن يكون المراد به « اللوح المحفوظ » الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق كما في قوله ـ تعالى ـ « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين [2] » . « كان ذلك في الكتاب مسطوراً [3] » وغيرها من الآيات . والأولى هنا أن يستدل على شمول القرآن بقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب **تبياناً لكل شيء** وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين[4] . » فهي صريحة في الدلالة على المراد .

كما أن على الداعية أن يتجنب الاستدلال بما ليس بدليل .

مثال ذلك : أن بعض الناس يستدلون على أن من ثمار تقوى الله أن يعلمه ما لم يكن يعلم ـ بقوله تعالى في ختام آية المداينة من سورة البقرة : « واتقوا الله ويعلمكم الله[5] » .

والحق أن الآية لا تدل على هذه الدعوى ، لأنها ليست أمراً وجواباً ، فإنما كان يصح ذلك لو كان لفظها : « واتقوا الله يعلمكم الله » . أما الآية أو هذه

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨

(٢) سورة يس : ١٢

(٣) سورة الأحزاب : ٦

(٤) سورة النحل : ٨٩

(٥) سورة البقرة : ٢٨٢

الفقرة منها ـ فإنها تتضمن أمراً بتقوى الله ، كما هي سنة القرآن حين يقرن الأوامر والنواهي بالتقوى . ثم بعد ذلك قال : « ويعلمكم الله » أي هذه الأوامر والأحكام ، كما قال في آية أخرى : « يبين الله لكم أن تضلو [1] » .

أما الاستدلال على الدعوى المذكورة فيمكن بقوله تعالى في سورة الأنفال : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا [2] » . أي نوراً تفرقون به بين الحق والباطل .

ومثلها قوله في سورة الحديد : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به [3] » .

بل يمكن أن يستدل بعموم قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً [4] » لأنه يشمل المخرج من الشبهات والمتشابهات .

**الحذر والتحذير من سوء التأويل وتحريف الكلم عن مواضعه : ـ**

ويجب على الداعية أن يحذر ويحذر من الانحراف والتحريف ، وسوء التأويل لآيات الكتاب ، وحملها على معان تخرجها عما أراد الله بها . وهذا نوع من التحريف الذي ذم الله عليه أهل الكتاب ، فقد حرفوا كتبهم لفظياً بالزيادة والنقصان ، ومعنوياً بسوء التأويل .

أما القرآن فهو محفوظ في الصدور والمصاحف ، ولا سبيل إلى تحريفه تحريفاً لفظياً ، ولكن قد يدخل في تفسيره سوء التأويل ، وهو التحريف المعنوي ـ وأيضاً الرأي المذموم الذي جاء الحديث يتوعد من فسر به القرآن .

وفي عصرنا ـ كما في عصور سابقة ـ كثرت أسباب الانحراف والتحريف . ومن هذه الأسباب : ـ

---

(١) سورة النساء : ١٧٦

(٢) سورة الأنفال : ٢٩

(٣) سورة الحديد : ٢٨

(٤) سورة الطلاق : ٢

١ ـ **اخضاع النصوص للواقع الزمني** ، وإن كان مخالفاً للإسلام ، ومحاولة أخذها من تلابيبها وتأويلها تأويلاً بعيداً عن الظاهر ، لتبرير هذا الواقع بإعطائه سنداً من الشرع .

كما رأينا ذلك في محاولات تسويغ نظام الفائدة في البنوك عند سطوة الرأسمالية في البلاد الإسلامية ، ومثلها محاولات تبرير التأميم والمصادرة للملكيات المشروعة بعد ذلك أيام سطوة الاشتراكية .

ومن ذلك الانحراف في تفسير الآيات والأحاديث عن مدلولاتها الظاهرة الواضحة إلى تأويلات بعيدة غير سائغة ولا لائقة ، ولا منسجمة مع السباق والسياق ، اتباعاً لفكرة شائعة أو نظرية سائدة ، لم تبلغ مبلغ الحقائق العلمية . كما وقع في ذلك بعض العلماء المعاصرين ، وغيرهم من الكاتبين المتسرعين .

٢ ـ **تبني مذهب أو فكرة أو اتجاه سابق ، ثم اتخاذ النصوص بعد ذلك دليلاً له :**

وهو ما عبر عنه بعض علمائنا : أن يعتقد ثم يستدل ، مع أن المنهج السليم أن يستدل ثم يعتقد .

وهذا ما رأيناه لدى كثير من علماء الكلام والفلاسفة والفرق المختلفة ، والمقلدين في الفقه ، فقد جعلوا مذاهبهم أصلاً ، ثم شدوا النصوص شداً لتأييد المذهب ، وإن كان في ذلك التكلف والتمحل ، وإن لم يجدوا مجالاً للتأويل لجئوا إلى القول بالنسخ ، مع أن النسخ لا يثبت بالاحتمال :

وقد رأينا ابن سينا وأمثاله من كبار الفلاسفة في العصور الإسلامية ، اعتقدوا صحة ما ذهب إليه أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في الإلهيات والطبيعيات وغيرها ، فلما اصطدم ذلك بآيات القرآن الوفيرة ، طفقوا يؤولونها تأويلات ترفضها اللغة ، كما يرفضها الدين ، حتى كفرهم الغزالي ومن بعده في ثلاث مسائل معروفة أنكروا فيها ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

**٣ ـ تجزئة النصوص وتفكيكها ، وعدم ربط بعضها ببعض** . مع أن الواجب أن يؤخذ في القضية المطروحة ، كل ما ورد فيها من نصوص ، والتوفيق بين بعضها وبعض ، لمعرفة المعنى المراد من مجموعها .

فمن أراد أن يعرف حكم القرآن في الربا فلا يسوغ له أن يقتصر على قوله تعالى في سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » دون أن يضم إليها قوله تعالى في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . فدل على أن ما زاد على رأس المال فهو ربا ، قليلاً كان أو كثيراً ، وإذن تكون عبارة « أضعافاً مضاعفة » وصفاً لبيان الواقع ، وليس قيداً حقيقياً كما تقول للتجار الجشعين : لا تحتكروا الضروريات لتربحوا مائتين في المائة ، فهذا بيان لواقعهم ، وليس معناه أنهم إذا احتكروا الطعام ونحوه ليربحوا مائة أو خمسين في المائة أو أقل او أكثر كان ذلك حلالاً .

**٤ ـ اتباع المتشابهات وترك المحكمات** . وهذا أصل من أصول الزيغ والضلال كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » . بينت الآية الكريمة أن من آيات الكتاب محكمات ، أي قاطعات أو واضحات الدلالة لمن تأملها ، وهن أم الكتاب ، أي أساسه ومعظمه وأكثره ، ومعنى هذا : أن الفرع يجب أن يرد إلى الأصل أو الأم ، والأقل يجب أن يفسر تبعاً للأكثر . ولكن الضالين الذين في قلوبهم زيغ وانحراف ، يجرون وراء المتشابهات ، متمسكين بما يظهر لهم منها ، موافقاً

لأهوائهم . ولو أنهم أنصفوا فردوا المتشابهات إلى المحكمات ، وبعبارة أخرى : ردوا المحتملات إلى القواطع والبينات ، للاح لهم الحق واضحاً وضوح الصبح لذي عينين .

وإذا تتبعنا الفرق المنحرفة التي خالفت عن صراط السنة والجماعة منذ صدور الإسلام إلى اليوم ، وجدنا من أهم وأبرز أسباب انحرافها : اتباع المتشابهات وترك الأصول المحكمات .

وما من بدعة من البدع المارقة إلا ولأهلها شبه يتكئون عليها من هذه المتشابهات حتى أن القائلين بوحدة الوجود ، وهم ـ كما قال صاحب « إيثار الحق على الخلق » ـ أشنع المبتدعين بدعة وأبعدهم عن القرآن والسنة وأفحشهم قولاً . ومع ذلك يحتجون لبدعتهم وضلالهم بمتشابهات من القرآن والحديث ، فيذكرون مثل قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » . « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

وبحديث : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . متفق عليه .

وأغفل هؤلاء أن الدين كله بقرآنه وسنته ، بل الأديان السماوية كلها تنادي بأن في الوجود ربا ومربوباً ، وخالقاً ومخلوقاً ، وكوناً ومكونا ، فثنائية الوجود من بدهيات الدين وضرورياته التي لا تحتاج إلى استدلال وإقامة برهان . بل إن النصارى حاولوا ويحاولون أن يجدوا في متشابه القرآن ما يسند دعواهم بألوهية المسيح أو بنوته لله ، من مثل قوله تعالى : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » تاركين المحكم من مثل قوله تعالى : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل » . « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام » . « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم » « لقد كفر الذين

قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » . « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم » .

والمقصود أن اتباع المتشابه هو دأب الزائغين من قبل ومن بعد .

**علوم القرآن :**

ومما يلزم الداعية معرفته : علوم القرآن ، وهي بمثابة مدخل لا بد منه لدراسة القرآن ذاته . وقد ألفت فيها كتب جامعة قديماً وحديثاً . فمن كتب القدماء : « البرهان في علوم القرآن » للإمام الزركشي ، « والإتقان في علوم القرآن » للحافظ السيوطي . ومن الكتب الحديثة : « مناهل العرفان في علوم القرآن » للزرقاني « ومباحث في علوم القرآن » للدكتور صبحي الصالح ومثله للشيخ مناع القطان ، وكثير غيرها مما ألف لطلاب الكليات الإسلامية .

كما ألفت كتب قديمة وحديثة في بعض أنواع من علوم القرآن ، مثل الكتب التي تبحث في « إعجاز القرآن » وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق . أو ما يتعلق بالتفسير مثل « رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية في أصول التفسير » و « التفسير والمفسرون » للشيخ الدكتور الذهبي ، « والنسخ في القرآن الكريم » للدكتور مصطفى زيد . وما كتب حول « ترجمة القرآن » بين المؤيدين والمعارضين ، مثل الشيخ المراغي ومحمد فريد وجدي والشيخ محمد سليمان وغيرهم .

**تفسير القرآن :**

ولا ريب أن أهم علوم القرآن هو « التفسير » الذي يعين على فهم المراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

وقد دوّن في تفسير القرآن مئات ومئات من الكتب منها ما فقد ، ومنها ما بقي . وهذا الذي بقي منه ما طبع منه وما يزال مخطوطاً .

من هذه الكتب ما يذهب مذهب الرواية ، ويسمى « التفسير بالمأثور » ومنها ما ينحو نحو الدراية ويسمى « التفسير بالرأي » ولكل منها خصائصه ومميزاته وعيوبه . فمما يغلب على كتب التفسير المأثور : وجود الإسرائيليات فيها ، وكذلك الموضوع والضعيف من الروايات .

ومما يغلب على كتب « التفسير بالرأي » غلبة الطابع الشخصي أو المذهبي أو الزمني على مؤلفها ، حتى إن التفسير ليتلون بلون صاحبه ، وينطبع بطابع عصره وثقافته واتجاهه إلى حد كبير . تفسير العالم اللغوي والنحوي غير تفسير الفقيه ، وهما غير تفسير المتكلم وتفسير المعتزلي غير تفسير الأشعري ، وتفسير هؤلاء جميعاً غير تفسير الصوفي .

ولا يحسن بالداعية أن يكتفي بكتاب واحد منها ويهمل سائرها ، فإن لكل منها مزية لا توجد ـ غالباً ـ عند غيره ، فالأولى أن ينهل منها ما استطاع وأن يقبس من كل كتاب خير ما فيه ، ولب ما يتميز به ويحترز مما فيه من أهواء أو شطحات . فتفسير مثل « الكشاف » للزمخشري ـ رغم نزعته الاعتزالية ـ لا يحسن الإعراض عنه ، بل ينبغي الاستفادة من مباحثه البلاغيه وغيرها وكذلك فعل أهل السنة من قديم ، لم يمنعهم اعتزاله أن ينتفعوا به . فمنهم من خرج أحاديثه كالحافظ ابن حجر ، ومنهم تعقبه في مواضع الاعتزال كابن المنّير .

فان كان ولا بد من التخير والانتقاء ، فاني أوثر في التفسير كتابي ( ابن جرير الطبري ) ت ٣١٠ هـ ـ ( وابن كثير الدمشقي ) ت ٧٧٤ هـ ـ وان كان ولا بد من أحدهما : فتفسير ابن كثير ، لأنه جمع خلاصة ابن جرير مع زيادة تنقيح وتهذيب ، وحسن ترجيح وتعقيب . وقد قال فيه السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ والزرقاني في شرح المواهب : إنه لم يؤلف على نمطه مثله .[1]

وفي رأيي أنه تفسير رواية ودراية معاً .

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتاني ص ١٤٧ نقلا عن ( التفسير والمفسرون ) ج ١ ص ٢٤٧ ط أولى .

وأما كتب التفسير بالرأي فيؤخذ منها ويترك ، ولكل منها مزاياه وعيوبه .

ومن أمثلها في نظري تفسير ابن عطية والقرطبي .

أما تفاسير المحدثين ، فهي كثيرة منها : تفسير القاسمي ، وتفسير المنار ، وتفسير ابن عاشور وتفسير ابن باديس ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، والتفسير الحديث لدروزه ، وتفسير الأجزاء العشرة الأولى لشلتوت .. وغيرها ..

ولا يستغني الداعية عن الاستفادة منها ، مع الحذر مما قد يكون فيها من غلو أو تقصير وكل بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك .

**وصايا لقاريء كتب التفسير : -**

ولا أنسى هنا أن أهمس في أذن الداعية أو طالب الدعوة ، الذي يريد أن يطالع كتب التفسير ، ويغترف من معينها ، بعدة وصايا ، استفدتها من قراءاتي وتجربتي .

**١ ـ الاهتمام بلباب التفسير : -**

أما وصيتي الأولى ، فهي الإعراض عن الحشو والفضول والاستطراد ، الذي انتفخت به بطون كتب التفسير ، من الاستغراق في المباحث اللفظية ، أو المسائل النحوية والنكات البلاغية ، والتطويل في المجادلات الكلامية ، والخلافات الفقهية وغير ذلك من ألوان الثقافات التي شغلت حيزاً ضخماً من كتب التفسير ، حتى حجبت قارئها عن إدراك أسرار كلام الله تعالى ، وهو الذي ألفت كتب التفسير من أجله . وهذا ما جعل أبا حيان يقول عن التفسير الكبير أو « مفاتيح الغيب » ـ للإمام الرازي كلمته المشهورة : فيه كل شيء إلا التفسير[1] !

---

(١) وكذلك قال السيد رشيد رضا عن تفسير « الجواهر » للشيخ طنطاوي جوهري ، لكثرة استطراداته وتوغلاته في العلوم الحديثة المناسبة وغير مناسبة أكثر مما اهتم بالتفسير ذاته .

ولا ريب أن هذه الكلمة غلو من أبي حيان . ففي الكتاب لفتات تفسيرية رائعة لا تجدها في غيره .

ولكن استطراداته الطويلة المديدة في شتى العلوم ، ومجادلاته الواسعة مع أرباب المذاهب الكلامية والفقهية ، قللت من الإفادة بالكتاب .

ومن ثم تجب العناية بلباب التفسير : أي ببيان المراد من كلام الله تعالى قبل الجري وراء القيل والقال ، وإضاعة الجهد والوقت فيما لا طائل تحته ، ولا ثمرة تجنى من ورائه .

وكثيراً ما يذكر بعض العلماء في الآية عشرة أقوال ـ أو أقل أو أكثر ـ لزيد وعمرو وبكر من الناس . دون أن يبين أي قول منها هو المعتمد وقد يختار قولاً منها دون أن يوضح سر اختياره وترجيحه .

وإذا كان هذا مطلوباً من كل عالم أو طالب علم ، فهو ألزم ما يطلب للدعاة إلى الله . فالداعية لا يؤثر في عقول الناس وعواطفهم بالمباحث النحوية والبلاغية والمجادلات الكلامية والفقهية وإنما يؤثر فيهم بما يجلّيه من أسرار الحق وأنوار الهداية في كلمات الله .

ولهذا يجب على الداعية أن يلتفت إلى ما في التفسير من تعقيبات ذوي القلوب الحية ، مما قد لا يعد من « مادة التفسير » وإن كان يعد من « روح التفسير » مثال ذلك : قوله تعالى :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فالمعنى واضح وهو أنه تعالى عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم ـ إذا بذلوها في سبيله ـ بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له .

ولكن لبعض المفسرين من أرباب البصائر هنا لفتات إشراقية ، تحرك القلوب الهامدة ، وتحيي العزائم الميتة ، بما فيها من حرارة الصدق ، وصفاء

الاخلاص . من ذلك قول الحسن البصري وقتادة تعليقاً على الآية : بايعهم والله فأغلى ثمنهم !

وقول الحسن أيضاً : أنفساً هو الذي خلقها ، وأموالاً هو الذي رزقها !

وقول شمّر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله في عنقه بيعة وفى بها ، أو مات عليها . ثم تلا هذه الآية .

هذا ما ينبغي للداعية أن يحرص عليه ، ويستظهره ، ويستزيد منه .

**٢ ـ الاعراض عن الاسرائيليات :**

وإن مما شوه تراثنا الثقافي ـ وخصوصاً في ميدان التفسير ـ تسرب الإسرائيليات إليه ، وتعكيرها لصفوه .

وقد بدأ هذا التسرب ـ للأسف الشديد ـ منذ عهد مبكر . أي من عهد الصحابة والتابعين ، على أيدي أمثال : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وغيرهما ممن دخل في الإسلام من أهل الكتاب . وكذلك ما وصل إلى المسلمين من كتب اليهود والنصارى .

ولكن التسرب كان في أول الأمر قليلاً ثم كثر ، ضيقاً ثم اتسع ، عفوياً ثم طفق يأخذ صفة الكيد والتدبير . والدس المتعمد .

وكأن اليهودية حين منيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية ، في المدينة وخيبر وغيرهما ، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوضها عن هزيمتها . وذلك هو سلاح الغزو الثقافي ، فدست إسرائيلياتها المنكرة ، في غفلة من الزمن ، فلم تمض برهة حتى غصت بها كتب المسلمين .

هذا مع أن القرآن الكريم ، قد سجل على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة ، تحريفهم لكتبهم ، وقولهم على الله بغير علم ، وإن منهم لفريقاً « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[1] » . « ومنهم أميون

(١) سورة البقرة : ٧٥

لا يعلمون الكتاب إلا أماني[1] » وإنهم « يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً[2] » وانهم « نسوا حظاً مما ذكروا به[3] » وإنهم « يحرفون الكلم عن مواضعه[4] » إلى آخر ما دمغهم الله تعالى به من صفات السوء .

ومع أن الرسول ـ ﷺ ـ رأى صحيفة من التوراة في يد عمر بن الخطاب ، فغضب وقال : أو متهوكون فيها ( أي أمتحيرون في ملتكم ) يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية والذي نفسي بيده ، لو كان موسى حياً ما حل له إلا أن يتبعني » .

فكيف مع هذا تساهل المسلمون في الأخذ عن أهل الكتاب وعن بني إسرائيل على الخصوص ؟ يبدو لي أن هناك سببين لهذا التساهل :

**أولهما** : ما فهموه من حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وقد ذكره ابن كثير في مقدمة تفسيره مستدلاً به على جواز التحدث عنهم فيما لا نعلم كذبه من ديننا .

**وسبب آخر** جعلهم يروون هذه الإسرائيليات في التفسير ، وهو أن كثيراً منها يتعلق بأمور مسكوت عنها ، ليست مما علم المسلمون صحته مما بأيديهم مما يشهد له بالصدق ، ولا مما علموا كذبه بما عندهم مما يخالفه . ولكنها أشياء لا من هذا القبيل ولا ذاك ، فلا تصدق ، ولا تكذب ، وتجوز على هذا حكايتها وغالبها مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني .

قال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره ـ وهو منقول من رسالة شيخه ابن تيميه ـ : « ولهذا يختلف أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتي عن

---

(١) سورة البقرة : ٧٨
(٢) سورة البقرة : ٧٩
(٣) سورة المائدة : ١٣
(٤) سورة النساء : ٤٦ وسورة المائدة : ١٣

المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون مثل أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ! وعدتهم ، وعصا موسى من أي شجر كانت ! وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله ـ تعالى ـ في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز . كما قال تعالى : « سيقولون : ثلاثة رابعهم ـ كلبهم ... » إلى آخر الآية .

وقد عقب على ذلك العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فقال وأحسن فيما قال : « إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه ـ شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن ، وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات ، أو في تعيين ما لم يعين فيها ، أو في تفصيل ما أجمل فيها ـ شيء آخر ، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله ـ ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم ـ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ اللهم غفرا .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه في تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف ، بعد أن ذكر أقوالاً في « إبليس » واسمه ،ومن أي قبيل هو ؟ : « وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذي بأيدينا . وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من

الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ـ كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء[1] وقال في أول سورة ق : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف ! ! ! وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس ، بما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يصدق ولا يكذب ، **وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم** . كما افترى في هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم . فكيف بأمة إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ـ وانما أباح الشارع في الرواية عنهم في قوله « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل » .

« وقال عند تفسير الآيات ٤١ ـ ٤٤ من سورة النحل ، وقد ذكر في قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عند ابن عباس ، وصفه بأنه « منكر غريب جداً » ثم قال : « والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد في صحفهم ، **كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل ، من الأوابد والضرائب والعجائب** ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف ونسخ ، وقد أغناها الله ـ سبحانه ـ عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة »[2] .

ولابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره تعقيبات كثيرة من هذا النوع على

---

(١) عمدة التفسير ج ١ : ص ١٥ .

(٢) عمدة التفسير ج ١ : ص ١٧

الإسرائيليات ، تتضمن إنكاره عليها ، ورفضه لها ، وإن كان يذكرها تبعاً لمن قبله . وفي بعض الأحيان يرفض ذكرها بالكلية ، مبقياً القرآن على إجماله دون الخوض في تفصيلات لم يأت بها حديث ثابت عن معصوم .

وذلك كما في تفسير قوله تعالى في سورة « ص » : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم .. الآيات : ٢١ ـ ٢٥ » فقد قال ابن كثير :

« قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده : لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ ويزيد وان كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله ـ عز وجل ـ فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضاً[1] .

وكنت أود أن يقف ابن كثير هذا الموقف من قصة سليمان في قوله تعالى في سورة « ص » أيضاً : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » . ولكنه ـ رحمه الله ـ أطال وأطنب في سرد الروايات العجيبة الغريبة المروية عن ابن عباس وقتادة والسدي ومجاهد وكعب الأحبار وغيرهم من مفسري السلف ، وكلها مما لا يقبله عقل ، ولا يصدقه نقل ، وقد ذكر حديثاً منها رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ ثم قال : إسناده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوي ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن صح عنه ، من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه .. إلى أن قال :

« وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ـ رضي الله عنهم ـ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١ ط عيسى الحلبي .

كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب . »[1]

فلم إذن تسويد الصفحات ، وإضاعة الأوقات فيما لا يسنده علم ولا هـدى ولا كتاب منير ؟ . وقد قال ابن كثير عند تفسير الآيات : ٥١ ـ ٥٦ من سورة الأنبياء : « **والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الاسرائيلية** ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها الكذب المروج عليهم .. « **وليته أعرض عنها كلها لا عن كثير منها** ، فإن القليل منها إثمه أكبر من نفعه .

ومن الكلمات البليغة المعبرة عن الإنكار والسخط على هذه الإسرائيليات ، ووجوب تنزيه القرآن عنها :

كلمة لابن عباس رواها البخاري في صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة .فقال ابن عباس : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرؤونه محضاً لم يشب ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلاينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم » .

وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه[1] .

**٣ ـ الحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة :**

وإذا كان على الداعية أن يحذر من الإسرائيليات التي كدرت صفاء التفسير

---

(١) المصدر نفسه ٤ ص ٣٤ ـ ٣٧

(١) مقدمة عمدة التفسير ج ١ ص ١٩

بما دسته من سموم . فإن عليه كذلك أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التي حشى بها كثير من كتب التفسير .

سواء من ذلك ما كان مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ وما كان موقوفاً على بعض الصحابة ، مثل علي وابن عباس وغيرهما ، وما كان منسوباً إلى بعض التابعين مثل مجاهد وعكرمة والحسن وابن جبير وغيرهم ، أو منسوباً إلى من بعدهم من أهل العلم .

وكان مثل ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن جرير الطبري ، يجمعون في تفسيرهم الصحيح والحسن ، والضعيف والمنكر ، بل الموضوع أحياناً من الأحاديث المرفوعة والروايات الموقوفة والمقطوعة .

وإذا أخذنا مفسراً كابن عباس مثالاً لنا فيما نقوله . وجدنا الطرق إليه تختلف قوة وضعفاً ، وقبولاً ورداً .

فهناك طريق معاوية بن صالح عن علي أبي طلحة عن ابن عباس . وهذه هي أجود الطرق عنه .

ونحوها : طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس .

ودونها : طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو ابن جبير عن ابن عباس ، وإسنادها حسن .

ودونها : طريق إسماعيل السدي الكبير عن أبي مالك أو عن أبي صالح عن ابن عباس . والسدي هذا مختلف فيه ، ولكن روى له مسلم وأهل السنن الأربعة .

وهناك طريق ابن جريج عن ابن عباس ، وهذه تحتاج إلى نظر ودقة في البحث لأن فيها الصحيح والسقيم ، لأن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع .

وهناك طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس ، وهي منقطعة إليه ؛ لأن الضحاك روى عنه ولم يلقه . وفي هذه الطريق من الضعفاء من روى عن

الضحاك مثل بشر بن عمارة عن أبي روق عنه .

وهناك طريق عطية العوفي عن ابن عباس ، وعطية ضعيف .

وطريق مقاتل بن سليمان ، وقد ضعفوه ، وقد يروى عن مجاهد والضحاك ولم يسمع عنهما . وقد كذبه غير واحد ، ولم يوثقه أحد .

وهناك طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابي عباس . وهذه هي أوهى الطرق عنه . فان انضم إلى طريق الكلبي رواية محمد بن مروان السدي الصغير ، فهي سلسلة الكذب ، كما قال ابن حجر والسيوطي وغيرهما .

ومع هذا فان المفسرين المتقدمين دونوا هذه الروايات بعجرها وبجرها ، حتى أوهى الطرق عن ابن عباس كثيراً ما يخرج منها الثعلبي والواحدي .[1]

وقد كان عذر المتقدمين في سياق هذه الروايات : أنهم يذكرونها بأسانيدها معتقدين أنهم بذلك قد برئوا من عهدتها بذكر سندها ، كما قيل : من أسند لك فقد حملك . أي حملك البحث عن رواته ومبلغهم من العدالة والضبط .

وكان العلماء في عصرهم يقدرون على تتبع الأسانيد ونقدها ، ومعرفة حال رجالها . ولهذا لم يكونوا ـ في أغلب الأحيان ـ يعقبون عليها بتصحيح أو تضعيف .

ثم جاء من بعدهم فنقل عنهم هذه الأقوال والروايات بعد حذف أسانيدها ، فظنها من ظنها من المتأخرين ثابتة وهي غير ثابتة ، وهذا ما أوقع كثيراً من المعاصرين في الخطأ حيث يكتفون بنقل الرواية عن الطبري والزمخشري والنسفي والرازي والخازن وغيرهم . وكأن مجرد هذه النسبة تغنيهم عن البحث في قيمة الروايات ، ومقدار ثبوتها ، ومدى قوة أسانيدها .

وحسبك أن تقرأ ما نقله كثير من هؤلاء المفسرين في قصة زينب بنت جحش وزوجها الأول زيد بن حارثة ، وما جاء في شأنها في سورة الأحزاب ، وعتاب

(١) انظر التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٧٧ ـ ٨١ والاتقان ج ٢ ص ١٨٩

الله لرسوله في هذا الشأن ، وذلك قوله تعالى : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً[1] » .

فقد جعلت الروايات من سبب نزول هذه الآية قصة حب عاطفي تخيله متخيل أو افتراه مفتر ، زعم أن زينب ظهرت للنبي ﷺ يوماً بعد زواجها من زيد ، فرآها فتعلق قلبه بها ، ورجع وهو يردد : سبحان مقلب القلوب ! . ولكنه كتم هذا الحب .. الخ حتى نزلت الآية .

وهذا الهراء لا دليل في الآية عليه ، ولم تصح به رواية ، كما لا تسنده دراية ومع هذا تعلق به المستشرقون والمبشرون وجعلوا منه قصة درامية غرامية ، يتخذون منها وسيلة للطعن في محمد ﷺ ـ وحجتهم أن ذلك منقول في أمهات كتب التفسير .

وأعجب من ذلك تعلق بعض المعاصرين من المسلمين ، الذين يكتبون في التفسير أو السيرة ، بهذه الروايات ، بدعوى أنها في كتب التفسير [2] .

ورحم الله الإمام الحافظ ابن كثير ، فقد قال عند تفسير الآية المذكورة :

ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف ـ رضي الله عنهم ـ أحببنا أن نضرب عنها صفحاً ، لعدم صحتها ، فلا نوردها . وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضاً حديثاً من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً [3] » .

---

(١) سورة الاحزاب : ٣٧

(٢) مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطىء ) في كتابها « نساء النبي »

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١ ط الحلبي .

وقد رد كثير من المعاصرين هذه الروايات ، معتمدين على النقد الداخلي لها ، مثل الدكتور هيكل في « حياة محمد » [1] والشيخ محمد الغزالي في « فقه السيرة » [2] .

ومثل ذلك ما يذكره المفسرون عند تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » الآية .. من سورة الحج من قصة « الغرانيق » وهي قصة مرفوضة لا تقوم على ساقين ، ولا يؤيدها نقل صحيح ولا عقل صريح .

وقد قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح [3] » .

ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يصنع هنا ما صنع في قصة زينب ، حيث ضرب هناك صفحاً عن الروايات الضعيفة ولم يوردها أصلاً . أما ههنا فحكم بضعفها ولكنه ذكرها .

ومثل هذه الروايات الضعيفة المتهافتة يفتح لها المستشرقون صدورهم ، ويأخذونها مسلّمين ، لأنها توافق هواهم ، وتخدم فكرتهم ، في حين يردون ـ كثيراً ـ الروايات الصحيحة إذا عارضت اتجاههم .

**الحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة :**

ومما ينبغي أن يحذر منه قارىء التفسير : الأقوال الضعيفة بل الفاسدة في بعض الأحيان . وهي أقوال صحيحة النسبة إلى قائليها من جهة الرواية ،

(١) ص ١٧٥ ـ ١٨٢ الطبعة الحادية عشرة

(٢) ص ١١٦ ـ ١١٨ ط ثالثة .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٩ . وقد الف المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة سماها « نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق » بين فيها بالأدلة العلية بطلان تلك الحكاية . فلتراجع

ولكنها سقيمة أو مردودة من جهة الدراية . وليس هذا بمستغرب ما دامت صادرة عن غير معصوم . فكل بشر يصيب ويخطىء ، وهو معذور في خطئه ، بل مأجور أجراً واحداً إذا كان بعد تحرّ واجتهاد ، واستفراغ للوسع في طلب

وإذا كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو ترجمان القرآن ، وحبر الأمة قد ثبتت عنه آراء في التفسير اعتبرها جمهور علماء الأمة ضعيفة أو شاذة ، وخالفه فيها عامة الصحابة ، مثل أقواله في المواريث ونحوها ، فكيف بمن دون ابن عباس ومن دون تلاميذ تلاميذه ؟ !

ولقد رأينا شيخ المفسرين الإمام أبا جعفر بن جرير الطبري ـ على جلالة قدره ، ومنزلة كتابه في التفسير ـ يختار أحياناً تأويلات ضعيفة ، بل هي غاية في الضعف . كتفسيره لقوله تعالى : « واهجروهن في المضاجع » بأن معناها قيدوهن من هَجَرَ البعيرَ إذا شده بالهِجار ، وهو القيد الذي يقيد به . والمراد : تقييد النساء لإكراههن على ما تمنعن عنه ! ولا عجب إن سمى الزمخشري هذا التفسير بتفسير الثقلاء . !

وكذلك اختياره لآيات المائدة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون فأولئك هم الظالمون ... فأولئك هم الفاسقون : إنها في أهل الكتاب . هذا مع أن الاعتبار بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقد ذكرت هذه الآيات عند حذيفة بن اليمان فقال رجل : – إن هذا في بني إسرائيل ! . فقال : نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل ، ان كان لكم كل حلوة ، ولهم كل مرة ! يعني كيف يوصف بنو إسرائيل بالكفر أو الظلم أو الفسق إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم ، ولا توصفون أنتم بذلك إذا لم تحكموا بما أنزل الله عليكم .

والمقصود هو اتقاء الضعيف من الأقوال والتاءويلات . مهما تكن مكانة قائلها . وقد قال علي كرم الله وجهه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله .